

شاعر من الأدب العربي في العهد العثماني في القرن السابع عشر ابن معصوم

د. محمد مسعود إركين⁽¹⁾

الملخص
الهدف من هذه الدراسة يتلخص في ثلاثة محاور، هي أولاً: دراسة حياة الشاعر ابن معصوم الذي عاش في العهد العثماني في القرن السابع عشر، والآثار التي خلفها لنا. ثانياً: دراسة الفنون الشعرية المختلفة التي تحدث عنها الشاعر من غزل وفخر ومديح وإخوانيات ورثاء. ثالثاً: يشمل محاولة لتوضيح الخصائص الفنية العامة في شعر ابن معصوم من خلال دراسة شكل القصيدة والأسلوب الفني واللغة الشعرية والوسائل البيانية التي تمثلت من خلالها الصورة الشعرية.

تمهيد:

لعل العصر العثماني لم يثر اهتمام الباحثين للإقبال عل دراسته لكثرة ما قيل عنه بأنه عصر انحطاط؛ فلم تجد الكنوز الدفينة في رفوف الخزائن من يرفع عنها الغبار ليكشفها ويخرجها من الظلمات إلى النور. وانطلاقاً من هذا وجدت نفسي باحثاً عن موضوع أدرسه يمثل هذا العصر ومحاولاً كشف شيء ولو يسير من خباياه.

وأتناول في هذا البحث حياة ابن معصوم وشعره الذي كان شاعراً ناثراً عالمياً في النحو. عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري في العصر العثماني. ولم يلق اهتماماً من الباحثين على الرغم من تضلعه في الفنون الأدبية المختلفة كما سنرى عند عرض مؤلفاته التي تناولت ميادين شتى.

(1) دكتور، جامعة دجلة، كلية العلوم والآداب، قسم اللغات الشرقية وآدابها، قسم اللغة العربية وآدابها، ديار بكر — تركيا.

1. حياته:

أ. اسمه ونسبه:

يتحدث ابن معصوم عن اسمه ونسبه فيقول: "فأنا علي بن أحمد نظام الدين بن محمد معصوم ابن أحمد نظام الدين بن إبراهيم بن سلام الله بن مسعود عماد الدين بن محمد صدر الدين بن منصور غياث الدين بن محمد صدر الدين بن إبراهيم شرف الملة بن محمد صدر الدين بن إسحاق عز الدين بن علي ضياء الدين بن عربشاه فخر الدين بن أمير عز الدين أبي المكارم بن أميري خطير الدين بن الحسن شرف الدين أبي علي بن الحسين أبي جعفر العزيزي بن علي أبي سعيد النصيبيني بن زيد الأعشم أبي إبراهيم بن علي أبي شجاع الزاهد بن محمد أبي جعفر بن علي أبي الحسين بن جعفر أبي عبد الله بن أحمد نصير الدين السكين النقيب بن جعفر أبي عبد الله الشاعر بن محمد أبي جعفر بن محمد بن زيد الشهيد بن علي زين العابدين بن الحسين أبي عبد الله سيد الشهداء ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام⁽²⁾.

ويتضح لنا من هذا السرد أن نسب ابن معصوم كان ينتهي إلى آل البيت بشكل واضح. واعتمدت في تحديد اسمه ونسبه على كتابه "سلوة الغريب" واكتفيت به، لأن المصادر التي تتحدث عن حياته جميعها أخذت اسمه ونسبه من المصدر نفسه.

ب. مولده وأسرته:

جاءت في المصادر رواية واحدة لتاريخ مولده اتفقت عليها، وهي ليلة السبت الخامس عشر من جمادى الأولى عام 1052هـ⁽³⁾. وقد أهملت بعض المصادر إيراد ذلك التاريخ⁽⁴⁾.

أما مكان ولادته فقد دار حوله بعض الاختلاف. فمعظم المصادر ذكرت المدينة المنورة مولداً له⁽⁵⁾، بينما ذهب صاحب نزهة الجليس وبعض المراجع إلى أن مكة المكرمة هي مكان ولادته⁽⁶⁾.

(2) سلوة الغريب وأسوة الأريب، ابن معصوم، تحقيق: شاکر هادي شکر، ط1، بيروت 1988، ص 84 — 85.

(3) الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968، 349/11، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، بيروت، 1982، 1/763، سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، عباس القمي كتابخانه سنائي، طهران، 1925، ص 246، أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين تحقيق، حسن الأمين ط4، مطبعة الإنصاف، بيروت، 1960 — 38/41.

(4) رياض العلماء وحياض الفضلاء، الميزر عبد الله أفندي الأصمعي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مطبعة الحياض، قم، 1401هـ، 365/3، نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، العباس بن علي بن نور الدين المكي الحسيني الموسوي المطبعة الوهية، القاهرة 1293هـ، 2/209، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، المحي، تحقيق: عبد الفتاح محمد حلو، ط1، القاهرة 1969، 4/187.

(5) انظر الحاشيتين السابقتين.

(6) نزهة الجليس، الموسوي، 2/209، فهرس الخزانة التيمورية، دار الكتب المصرية، القاهرة؛ 1948، 3/283، الأعلام، خير الدين الزركلي، ط10، بيروت 1992، 4/258.

إلى قوله:

إِنْ كُنْتَ أَحَلَلْتَ الْجَنَانَ مُنْعَمًا فَأَبُوكَ حَلَّ مِنْ الْهُمُومِ لَظَاهَا

وهذه القصيدة تدل على أنه كان متزوجاً، ولكننا لا نعرف متى تزوج أو من تزوج، كما لا نعلم شيئاً عن أخبار أولاده سوى من تحدث إلينا عنهم في هذه القصيدة.

كان أول من انتقل إلى شيراز من أفراد هذه الأسرة علي أبو سعيد النصيبني، وأول من غادر شيراز إلى مكة المكرمة السيد محمد معصوم، وذلك بعد انتقال عمه وختته الأمير نصير الدين حسين إليها على حد قول شاعرنا في رحلته(15).

ج. نشأته ومراحل حياته

لا تقدم لنا المصادر القديمة معلومات وافية عن نشأته، وكل ما نعرف عنه أنه نشأ في كنف والدته وأخواله، حيث سافر والده عام 1054هـ إلى الديار الهندية — قبل أن يتجاوز شاعرنا سن الصبا — بطلب من عبد الله بن محمد قطب شاه صاحب حيدر آباد، حيث زوجه السلطان ابنته، وولاه الأمور الإدارية هناك.

نستطيع أن نقسم حياة ابن معصوم إلى مرحلتين؛ تنحصر المرحلة الأولى في الحجاز حيث قضى طفولته هناك، ولا نتحدث المصادر لنا عن تلك الفترة، ويبدو أن ابن معصوم خلال هذه الفترة رحل من المدينة المنورة إلى مكة(16)، وأما المرحلة الثانية، فهي التي عاش فيها ألم الفراق والبعد عن الديار، حيث كان بعيداً عن وطنه ممضياً جل عمره في الهند، وفي مدينة شيراز بإيران.

سافر شاعرنا إلى الهند بطلب من والده كي يستقر عنده في الهند، ويتحدث عن إجابته دعوة والده مبدياً مشاعره إزاء وطنه بسبب فراقه له، ويشبه هذه المفارقة بمفارقة الأرواح للأبدان(17).

وصل ابن معصوم إلى الديار الهندية بعد سفر — شاق متعب طويل — دام سنتين، وذلك عام 1068هـ(18). تربى شاعرنا تحت كنف والده — الذي شغل مناصب إدارية هامة في الدولة — وأمضى فترة من عمره تناهز ثمانية عشر عاماً في حيدر آباد عاصمة دولة قطب شاهي في إقليم كولاكنده، وتولى خلال هذه السنوات مناصب مهمة في سلم الإدارة لمملكة قطب شاهي(19)، ولكن الأمور ما لبثت أن تغيرت بالنسبة إلى ابن معصوم بعد أن توفي السلطان عبد الله قطب شاه مما أدى إلى سيطرة أبي الحسن قطب شاه آخر سلاطين قطب شاهي على مقاليد الحكم في الدولة، إذ تعرض

(15) سلوة الغريب، ابن معصوم، ص 85.

(16) أعيان الشيعة، الأمين، 39/41.

(17) سلوة الغريب، ابن معصوم، ص 37.

(18) الغدير، النجفي، 349/11.

(19) أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم، تحقيق، شاعر هادي شكر، ط 1، مطبعة النعمان، النجف، 1968، 8/1.

والده إثر ذلك لمصاعب شتى وانتهى به المطاف سجيناً في أخريات عمره، وتحمل كثيراً من المشاق وظل محبوساً حتى توفي (20) عام 1085هـ في حيدر آباد (21).

وبعد وفاة والده بمدة قصيرة، توالى عليه المصائب وكأن الدنيا انقلبت عليه، فضلاً عن أن أعداءه اهتموا بالفرصة للقضاء عليه عقب وفاة والده، ووفاة قطب شاه، إذ فرض عليه أبو الحسن قطب شاه الإقامة الجبرية، وتحمل كثيراً من المشاق والصعوبات التي تعرض لها (22).

وعندما علم شاعرنا أن أعداءه يقومون بتدبير المؤامرة للقضاء عليه، والتخلص منه، قرر الخروج من حيدر آباد سرا هارباً من أعدائه متوجهاً إلى مقر السلطان أورنكزيب إمبراطور الدولة المغولية في الهند، وكان حينئذ موجوداً في مدينة برهانپور. وحاول خصومه للحاق به من أجل القضاء عليه، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق غايتهم (23).

ولما وصل ابن معصوم إلى السلطان أورنكزيب لقي منه ترحيباً حاراً حيث استقبله، وقلده قيادة فرقة من الجيش ملقباً إياه بالسيد علي خان، ومنذ ذلك الحين نودي بهذا اللقب واشتهر به، واصطحبه السلطان إلى مدينة أورنك آباد (24)، وجعله حارساً عليها عندما ترك أورنك آباد متوجهاً إلى أحمد نكر، وبعد إقامته فيها مدة قصيرة توجه إلى مدينة لاهور حيث عينه السلطان والياً على مدينة لاهور ومسا حولها وطلب شاعرنا من السلطان أورنكزيب إعفاءه من هذا المنصب بعد أن أمضى فيه فترة طويلة، فأجابه السلطان بقبول حسن وعينه رئيساً على ديوان برهانپور (25).

وشغل ابن معصوم هذا المنصب إلى أن طلب إعفاءه من السلطان أورنكزيب عام 1114هـ، كي يتسنى له زيارة الأماكن المقدسة في إقليمي الحجاز وإيران (26)، فضلاً عن أنه كان مشتاقاً إلى مسقط رأسه، ويعبر لنا عن مشاعره، فقد كان محترقاً بلوعة النوى بسبب بعده عن وطنه (27).

غادر ابن معصوم الديار الهندية بعد أن قضى فيها ستاً وأربعين سنة متوجهاً إلى مكة المشرفة مع أسرته عام 1114هـ لتأدية مناسك الحج (28)، فأصبح مرتاح البال، مطمئن القلب بهذه الزيارة

(20) نفحة الريحانة، المحمي، 4/ 179.

(21) الديوان، ص 301.

(22) المصدر نفسه، دراسة المحقق، ص 6.

(23) أنوار الربيع، ابن معصوم، 7/ 1.

(24) هي مدينة في ولاية بومباي، كانت تعرف من قبل بحركي، قصة سلطنة أحمد نكر في عهد ملك عمر. وقد حرقها المغول كلتها سنة 102هـ ثم أعيد بناؤها وأطلق عليها اسم جديد هو أورنك آباد نسبة إلى أورنكزيب الذي كان يعيش فيها أثناء توليه منصب سلطنة الدكن للمرة الثانية. (دائرة المعارف الإسلامية، 5/ 196).

(25) أنوار الربيع، ابن معصوم، 7/ 1.

(26) الغدير، 11 النجفي، 349.

(27) الديوان، ص 149.

(28) أنوار الربيع، ابن معصوم، 8/ 1.

لبيت الله الحرام. ثم أم المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ، وبعد أن زار المدينة سافر إلى العراق، فأقام فيها مدة قصيرة بحث خلالها عن بيئة مناسبة للقيام بالعمل في التدريس والتأليف، ولكن العراق خيب آماله فيما أراد القيام به هناك، وزار خلال إقامته مرقد الأئمة في العراق وذلك في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. ومن ثم قرر مواصلة السفر تجاه منطقة خراسان قاصدا زيارة ضريح الإمام علي بن موسى الرضا (29)، مؤرخاً عام سفره بقصيدته التي يمدح به الشاه حسين الصفوي حيث يقول (30):

فَقَدْ أَتَى مُقْصِحاً تَارِيخَ زَوْرَتِهِ (نَوَلُ الرِّضَا) وَهُوَ تَارِيخٌ لَهُ خَطَرُ

تبين لنا من هذه القصيدة أنه أتى إلى خراسان في عام 1118هـ وليس في سنة 1117هـ كما ذكره غلام علي آزاد صاحب سبحة المرجان. وبعد أن أتم زيارته لضريح الإمام الرضا علي ابن موسى توجه إلى أصفهان عاصمة الدولة الصفوية في عهد السلطان حسين الصفوي، فأقام فيها مدة قصيرة حيث لم يرق له البقاء هناك بسبب عدم وجود ظروف ملائمة كي يتفرغ للتدريس والتأليف، واختار أخيراً مدينة شیراز مقراً لسكناءه، فأقام بالمدرسة المنصورية التي بناها جده غياث الدين منصور، وانصرف تماماً إلى التدريس والتأليف (31). ولا نعرف شيئاً عنه في هذه المرحلة التي كان يقضي بها أواخر عمره.

د. دراسته وثقافته:

لا نعرف شيئاً كثيراً عن دراسته في المرحلة الأولى من نشأته، حيث تفتقر المصادر إلى أخبارها، ولكننا نستطيع القول: إنه تلقى دراسته الأولى في مكة قبل سفره إلى الهند، ويؤيد ذلك ما ذهب إليه محقق الديوان حيث يقول إنه كان مزوداً بالكثير من مقدمات العلوم العربية، ومنها الدينية، مستشهداً بوجود القصائد والمقطوعات الجيدة، وهي من نظمه قبل سفره، فضلاً عن كتابه الذي يتحدث فيه عن رحلته إلى الهند، وكان عمره آنذاك أربع عشرة سنة (32).

ونجد إشارات متفرقة حول دراسته قبل مغادرته إلى الهند، إذ يذكر شاعرنا بعض أسماء العلماء الذين نصادفهم في مكة، وربما تأثر بهم، واستفاد من علمهم من خلال حلقات الدروس التي كانوا يعقدونها في مكة.

نستطيع أن نذكر من هؤلاء العلماء الذين أشار إليهم ابن معصوم "محمد باقر الخراساني" (33) الذي يعده ابن معصوم أحد المجتهدين في علوم الدين، وغيرها من فنون العلوم (34).

(29) المصدر نفسه، ص 8.

(30) المصدر نفسه، ص 176.

(31) المصدر نفسه، 8/1.

(32) الديوان، ص 8 - 9 (دراسة المحقق).

(33) لم أتف على ترجمته.

نستطيع القول مما سبق ما يلي: أولاً: كانت ثقافة ابن معصوم متنوعة في ألوانها متشعبة في فروعها، وذلك لكثرة مشاربها حيث نستدل على ذلك من تنوع ثقافته أساتذته الذين درسوه وكذلك تنوع مؤلفاته، فتارة في الأدب بلاغة ونحوا، وتارة في الفقه وغير ذلك.

ثانياً: غلب عليه الطابع الأدبي واللغوي، لقد سطع نجم ابن معصوم في العلوم الأدبية بشكل أكبر من باقي الفروع العلمية التي لم تختف من ثقافته ولم يهملها، ولكنه كما نرى مجموع ما ألف، انكباه على الأدب حيث له في هذا المجال مؤلفات أكثر من باقي الفروع العلمية. ثالثاً: معرفته باللغات، هو عالم متضلّع باللغة العربية وفقهها، وهذا واضح جلي من مؤلفاته، أما غير العربية، فنرى الفارسية التي لا بد من أنه كان على إطلاع واسع فيها، لأنه شغل مناصب في عهد أوركزيب وكانت اللغة الرسمية في هذه الدولة هي الفارسية.

هـ وفاته:

نلاحظ أن خلافاً كثيرة دارت حول تأريخ وفاة شاعرنا، ونرى أن ثمة أربع روايات تقدم لنا أربعة تواريخ وهي؛ عام 1117هـ⁽⁴⁵⁾، 1118هـ⁽⁴⁶⁾، 1119هـ⁽⁴⁷⁾، 1120هـ⁽⁴⁸⁾. وندرس التواريخ لنجد بأنه كان على قيد الحياة عام 1119هـ مستدلين على ذلك من خلال قصيدته التي أرخ فيها عام بناء المدرسة التي أنشأها السلطان حسين الصفوي بأصفهان سنة 1119هـ حيث يقول⁽⁴⁹⁾:

أَوَى بِهَا كُلَّ الْعُلُومِ فَأَصْنَبَتْ
وَطَنًا لَهَا إِذْ أَقْفَرَتْ أَوْطَانُهَا
فَلِذَا أَتَى تَارِيخُ عَامِ تَمَامِهَا
(مَعْنَى هُدَى) فَخَوَى الْهُدَى بُنْيَانُهَا

وانطلاقاً من هذه القصيدة نرى أنه توفي على الأرجح في سنة 1120هـ مستنداً إلى أنه لا توجد رواية تبعد موته أكثر من هذا التاريخ، ودفن بحرم الشاه جراح أحمد بن الإمام موسى بن جعفر عند جده غياث الدين المنصور صاحب المدرسة المنصورية⁽⁵⁰⁾.

2. آثاره

خلف ابن معصوم مؤلفات كثيرة ذات أهمية في مجالات شتى. وسأتناول تبيان هذه المؤلفات كل على حدة، غير أن بعضاً منها لم تصل إلى أيامنا هذه، وبقيت أسماء غابرة نسمع عنها ولا نراها.

⁽⁴⁵⁾ أنوار الريح، ابن معصوم، 32/1 (نقلاً عن سبعة المرجان)، هدية العارفين، 763/1.

⁽⁴⁶⁾ رياض العلماء، الميرزا، 367/3؛ تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1983، 298/3.

⁽⁴⁷⁾ سفينة البحار، القمي، ص 246.

⁽⁴⁸⁾ نزهة المجلس، 1 الموسوي، 210، الغدير، النجفي، 350/11؛ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات. محمد باقر

الموسوي الخوانساري، ط 1، الدار الإسلامية، بيروت، بلا تاريخ 381/4؛ (677، GALS, II).

⁽⁴⁹⁾ الديوان، ص 464.

⁽⁵⁰⁾ الغدير، النجفي، 349/11.

- 6- رسالة ي أغاليط الفيروز آبادي في القاموس⁽⁵⁶⁾.
 7- ملحقات السلافة: مشحونة بكل أدب وظرافة⁽⁵⁷⁾.
 8- رسالة في فن المعنى: ذكرها لنا ابن معصوم ويقول عنه "وقد ذكرت جملة مقنعة في مستحسنات التصحيف في الرسالة التي ألفتها في المعنى، فمن أراد ذلك فعليه به"⁽⁵⁸⁾.
 9- محك القريض⁽⁵⁹⁾.

- 10- شرحان على الصمدية: المتوسط والصغير⁽⁶⁰⁾.
 11- رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين⁽⁶¹⁾.
 12- الكلم الطيب والغث الصيب⁽⁶²⁾.
 13- رسالة في المسلسلة للأباء⁽⁶³⁾.
 14- أحوال الصحابة والتابعين والعلماء⁽⁶⁴⁾.

3. الآثار المفقودة مجهولة المضمون:

- 1- التذكرة في الفوائد النادرة⁽⁶⁵⁾.
 2- حديقة العلم⁽⁶⁶⁾.
 3- نفثة المصذور⁽⁶⁷⁾.

⁽⁵⁶⁾روضات الجنات، الخوانساري، 4/ 379؛ أعيان الشيعة، الأمين، 41/ 39؛ الغدير، النجفي، 11/ 348

⁽⁵⁷⁾الغدير، النجفي، 11/ 348.

⁽⁵⁸⁾أنوار الربيع، ابن معصوم، 1/ 175.

⁽⁵⁹⁾المصدر نفسه، 1/ 185.

⁽⁶⁰⁾روضات الجنات، الخوانساري، 4/ 379؛ الغدير، النجفي، 11/ 348

⁽⁶¹⁾روضات الجنات، الخوانساري، 4/ 379؛ أعيان الشيعة، الأمين، 41/ 39؛ الغدير، النجفي، 11/ 347 هدية العارفين 1/ 763.

⁽⁶²⁾روضات الجنات، الخوانساري، 4/ 379؛ أعيان الشيعة، الأمين، 41/ 39؛ الغدير، النجفي، 11/ 348 هدية العارفين، 1/ 763.

⁽⁶³⁾الغدير، النجفي، 11/ 348.

⁽⁶⁴⁾أعيان الشيعة، الأمين، 41/ 39.

⁽⁶⁵⁾أعيان الشيعة، الأمين، 41/ 39، الغدير، النجفي، 11/ 348.

⁽⁶⁶⁾ذخائر التراث العربي الإسلامي، عبد الجبار عبد الرحمن، ط1، مطبعة جامعة البصرة، بصرة 1981، 1/ 245.

⁽⁶⁷⁾أنوار الربيع، ابن معصوم، 2/ 343.

3. شعره:

نظم ابن معصوم الشعر وهو لم يتجاوز سن الصبا، ولقد تطرق إلى كثير من الموضوعات الشعرية المعروفة في الأدب العربي منذ العصور السابقة، فنظم في الغزل، والفخر، والمدح، والإخوانيات، والثناء.

كان معظم شعره مرآة لأمر حياته الخاصة من خلال ما جادت به قريحته، ولهذا نستطيع أن نعد شعر ابن معصوم سفراً يؤرخ ما مر به من حوادث وما اعترضه من مواقف، وسجلاً حافلاً بمشاعره يعرض الفرح تارة والحزن تارة أخرى. فتنوعت أغراض قصائده وكثرت في موضوع، وقلت في آخر.

ولذلك ساستعرض ما جاء منها في شعره مرتباً إياها حسب أكثرها شيوعاً في ديوانه باستثناء الفخر الذي جعلته قبل المديح بسبب امتزاج فخره بمديحه.

أولاً: الغزل

يعبر الشعر الغزلي عن المشاعر والعواطف التي اعتملت بها نفس الشاعر، ولوعته هياماً ووجداً نحو من يحب، مترجماً مشاعره الصادقة تجاه المحبوبة.

كان ابن معصوم من الشعراء الذين حفلت دواوينهم بالقصائد الغزلية، وقد تنوعت قصائد الغزل عنده، وتراوحت بين قصائد، ومقطوعات مستقلة، ومقدمات لقصائد غير غزلية ذوات موضوعات مختلفة.

نظم شاعرنا قصائده الغزلية بنوعيهما الحسي والعذري، وتمثل غزله بالمرأة حبيبة له تارة، وغرضاً له للتعبير من خلالها عن مشاعره تجاه خلانه، أو وطنه تارة أخرى. وجدير بنا أن نفصل القول عن الغزل بنوعية عند ابن معصوم لنرى مدى تمكنه منهما.

1. الغزل الحسي:

وصف ابن معصوم المرأة في قصائده الغزلية وصفاً حسيّاً، فرسم لنا أعضاء جسمها، ومواطن الجمال فيها، مستمداً ذلك من بحر الصور والتشابه والمعاني التي جادت بها قرائح الأقدمين من الشعراء كما سنراه لاحقاً. فتحدث شاعرنا عن شعر المرأة، ووجهها، وعينيها، وأجفانها، وخدها، وشامتها، وخالها، وثغرها، وشفاهها، وأذنها، وقرطها، وجيدها، وخصرها، ومعصمها، وبنانها، وقدها، وقامتها. فجاءت الصورة واضحة المعالم بكل تفاصيلها ودقائقها.

يصور ابن معصوم شعر المرأة كاسفاً للشمس إذا ما نثر لطلوه وكثافته إذ يقول⁽⁶⁸⁾:

⁽⁶⁸⁾ الديوان، ص 249.

وإنْ نَشَرْتَ يَوْمًا ذَوَائِبَ فَرَعِهَا . فَمَا نَشَرْتَ إِلَّا ظَلَامًا عَلَى شَمْسٍ

ويرى الوجه بدرا منيراً، أو أكثر حسناً من البدر كما يقول⁽⁶⁹⁾:

سَفَرَتْ أَمِيمَةُ لَيْلَةَ النَّفْرِ . كَالْبَدْرِ أَوْ أَبْهَى مِنَ الْبَدْرِ

والجبين يصفه بالواضح الناصع كالبدر الوضاء مما يميز الفتاة من أترابها، ويزيدها جمالاً وفتنة كما يقول⁽⁷⁰⁾:

مِنْ كُلِّ وَاضِحَةِ الْجَبِينِ كَأَنَّهَا . قَمَرٌ يُنِيرُ مِنَ الْفُرُوعِ غَيَاهِبًا

والعيون في شعره هي العيون الوسنى، والشفاه نراها شفاها متصفة بتلك الميزة المحببة عند العرب وهي لمى الشفاه إذ يقول في العين والشفه⁽⁷¹⁾:

أَمَّا وَالشَّاهِ الثَّلْعَسُ (72) وَالْأَعْيُنِ الثُّعْسُ . لَقَدْ جُبِلَتْ طَبْعًا عَلَى حُبِّهَا نَفْسِي

أما الجفن الذي يتحدث عنه شاعرنا، فهو الجفن المليء بالسحر لما فيه من وسن ونعاس، حيث يقول⁽⁷³⁾:

تَوَزَّعَ قَلْبِي بَيْنَ خَدِّ مُضَرَّجٍ . وَجَفْنِ كَلِيلِ الطَّرْفِ بِالسَّحْرِ نَافِثٍ

والخد يراه خدًا محمرًا كما لو نفر الدم منه. ويصف الشاعر الخد المتورد في الوجه الأبيض ذي الشامة التي تزيد من حسنه، حيث يقول⁽⁷⁴⁾:

يَا لَبِيضَاءَ زَانَتِ الْوَجْنَةَ الْحَمَّ . ..رَاءَ مِنْهَا بِالشَّامَةِ الْخَضْرَاءِ

أما الخال الأسود فيشبهه بسويداء القلب التي اجتمع الحب فيها، وهذا يضفي جمالاً على قلبه كما يضفي الخال حسناً على الخد، إذ يقول⁽⁷⁵⁾:

كَأَنَّ اسْوَدَادَ الْخَالِ فِي صَحْنِ خَدِّهَا . لَهُ حُبُّهَا مِنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ صَانِعُ

ويصور الثغر وابتناسمته بعد ترك العتاب كالدر المتلألئ كما يقول⁽⁷⁶⁾:

(69) المصدر نفسه، ص 167.

(70) المصدر نفسه، ص 66.

(71) المصدر نفسه، ص 249.

(72) جمع لعساء: سواد اللثة والشفة، لسان العرب، ابن منظور، 389/12.

(73) الغدير، النحفي، 348/11.

(74) المصدر نفسه، ص 37.

(75) المصدر نفسه، ص 285.

(76) المصدر نفسه، ص 68.

إلى أن طَوَتْ نَشْرَ الْعِتَابِ وَأَقْبَلَتْ
وَنَرَى الْأَذْنَ وَالْقِرْطَ عِنْدَهُ كَالنَّجْمِ اللَّامِعِ، والجيد وعقده كالثرى في كبد السماء، كما يقول (77):
سَرَتْ مَوْهِنًا وَالنَّجْمُ فِي أَذْنِهَا قِرْطُ
وَعَقْدُ الثَّرْيَا فِي مَقْلَدِهَا سِمَطُ
أما الخصر الذي يتغزل به ابن معصوم، فهو الخصر الأهيف الذي لا تكاد تميزه لو لا ما عقد
عليها من نطاق شده إلى ردفه حيث يقول (78):

هَيْفَاءُ لَوْلَا عَقْدُ مِنْطَقِهَا (79)
لَمْ يَسْتَقِلَّ بِرَدْفِهَا الْخَصْرُ
ويتغنى شاعرنا بالمعصم والأنامل، ومن ذلك وصفه لأنامل جارية تعمل ساقية حين تدير
الكؤوس، إذ يصفها بالنحافة والنعومة. ويصف المعصم بالبض الذي لولا شد الأساور له لا ندلق كما
يقول (80):

يُدِيرُهَا بِيْنَانٍ كَادَ مَعْصَمُهَا
وَمِنْ حَيْثُ الْقَوَامِ وَالْقَدِّ، فيصور المرأة ممشوقة تتمايل كغصن البان، إذ يقول (81):

مُهْفَهْقَةُ الْقَوَامِ إِذَا تَثْنَتْ
تَثْنَتْ قَدًّا تَقَرَّدُ بِالنَّضَارَةِ

ومما سبق تجتمع لنا أوصاف محبوبته الجسدية فهي ذات الشعر الأسود الطويل، والوجه البراق
ذي البشرة اللامعة البيضاء، والجبين الواسع الناصع البياض، والعيون الناعسة، والشفاه ذات اللمي،
والخدود الموردة المزدانة بالشامة أو الخال، والثغر المبتسم ذي الشفاه الندية، والأذن ذات القرط،
والجيد المتلفح بالطوق، وذلك لما يضيفي كل منهما على صاحبه من حسن وجمال، والخصر النحيف
الدقيق، والمعصم البض، والأنامل الرقيقة الناعمة، والقوام اللين الممشوق..

صورة محبوبته التي وردت في شعره تفصيلا ليست سوى تلك الأوصاف التي أطلقها أسلافه
من الشعراء على محبوباتهم، فلا نرى الحديث عن جمال الهنديات في شعره، ولم يأت بأي وصف
لهن، هذا يقودنا إلى القول إن تغزله المستمر بالمرأة العربية ووصف جمالها إن كانت غائبة عن
عينيه عندما كان في الهند، فهي في داخله صورة لشيء آخر، لعلها صورة وطنه الذي كثر شوقه
إليه

(77) المصدر نفسه، ص 261.

(78) المصدر نفسه، ص 261.

(79) المنطق: النطاق، لسان العرب، ابن منظور، 188/14.

(80) الديوان، ص 220.

(81) المصدر نفسه، 209.

أما أحوال محبوبته وأحواله معها فتراها في شعره واضحة، فحبه لجمالها، وأخبار الوصل والصد، والوفاء، ومخالفة الوعد، والتدلل، والعتاب، والظلم، والصبر على الفراق، والاعتذار، والسعي في سبيل الحبيب، وترك كلام الواشين وعدم الإصغاء إليه.

يتحدث ابن معصوم عن جمال محبوبته، ويصف لنا لهفة نفسه لتلك التي تغار من الشمس لحسنها وبهائها، ويقول إنه لا بأس من غبطة فهي خير من الحسد. ويتابع وصف محبوبته وجمالها حين يصف مقدمة شعرها والمتألثة في غرتها، ورائحة المسك تتبع حركات المشط بين خصلاته، إذ يقول⁽⁸²⁾:

بِنَفْسِي فَتَاةٌ تَغْبِطُ الشَّمْسُ حُسْنَهَا وَفِي مِثْلِ هَذَا الْحُسْنِ يُسْتَحْسَنُ الْغَبْطُ
لَهَا طُرَّةٌ تَضْفُو عَلَى صُبْحِ غُرَّةٍ يُسَاقُطُ مِسْكَاً مِنْ غَدَائِرِهَا الْمُشْطُ

وتطرق شاعرنا إلى وصل الحبيبة وصددها، فيرصد حبيبته تظهر حالتها الوصل والصد، فمحبوبته لا تلبث أن تسكن في موقع حتى تغيره، فحيناً تدنيه منها وحيناً تبعده، ويصف الشاعر ما فعلته به، فقد أطارت لبه من دون الخمر التي لم تصب منه شيئاً، حيث يقول⁽⁸³⁾:

وَتُبْدِي حَالَتِي وَصَلِّ وَصَدِّ فَتُحْيِي تَارَةً وَتُمَيِّتُ تَارَةً
سَكِرْتُ بِحُبِّهَا مِنْ قَبْلِ سُكْرِي وَمَا عَاقَرْتُ مِنْ دُنْ عَقَارِهِ

ويتحدث ابن معصوم عن إخلاف وعد حبيبته، ويشكو منها، ويطلب من صاحبه أن يخبر هند — وهي محبوبته — أو رفيقاتها إن رأهن بأنها قد خالفت وعدا قطعته على نفسها حيث يقول⁽⁸⁴⁾:

فَإِنْ شَاهدَتْ عَيْنَاكَ هِنْدًا وَتَرَبَّهَا فَقُلْ لَهُمَا تَالَهُ أَخْلَفْتُمَا الْوَعْدَا

ويصور لنا شاعرنا ابن معصوم عتاب الحبيب المزدان بالتدلل، إذ يقول⁽⁸⁵⁾:

وَعِدَا يُعَاتِبُنِي عِتَاباً زَانَهُ دَلٌّ بِلاَ هَجَرٍ وَلَا إِفْحَاشٍ

ويتحدث عن عتاب الحبيبة وتدللها بالإضافة إلى الاعتذار لها وطلب الصفح منها فأنت تعالجه بالعتاب واللوم، فتطيب نفسه بذلك العتاب ويرى فيه زادا لنار الحب تقوية، لا سيما حين يعتذر لها عما صدر عنه، ويقول إنها لو علمت الحقيقة لأنصفت، حيث يقول⁽⁸⁶⁾:

⁽⁸²⁾ المصدر نفسه، ص 262.

⁽⁸³⁾ المصدر نفسه، ص 209.

⁽⁸⁴⁾ المصدر نفسه، ص 148.

⁽⁸⁵⁾ المصدر نفسه، ص 253.

⁽⁸⁶⁾ المصدر نفسه، ص 68.

فَوَاقَتْ تُتَاجِنِي بِعَتَبِ هَوِّ الْمُنَى وَلَيْسَ يَلْذُ الْحُبُّ مَا لَمْ يَكُنْ عَتَبُ
فَمَا زِلْتُ أَبْدِي الْغُذْرَ أَسْأَلُهَا الرِّضَا وَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ أَنْصَفْتُ لِمَنْ الذَّنْبُ
ومن ثم نراه يعتب على محبوبته لإخلافها في وعدها له، حيث يقول (87):

أَمَا كُنْتَمَا أُعْطِيتُمَا نِي مَوَاتِقًا بِأَنْكَمَا لَا تَتَقَضَانِ لَنَا عَهْدًا
ويتحدث عن ظلم الحبيب في أبيات يناجي بها من ملأت الدنيا فتنة بجمالها، وملكنت عليه قلبه، ويرى أنها قد أجحفت في الحكم عليه حين أساءت الظن به وهو لم يرتكب ذنباً ويعجب من طول صبره على الفراق والصد، حيث يقول (88):

يَا رَبَّةَ الْحُسْنِ مَهْلًا قَدْ أَسَأْتُ بِنَا مَالِي عَلَى كُلِّ هَذَا الْبَيْنِ مُصْطَبِرُ
إلى قوله:

فَاقْضِي الَّذِي شَبْتُ مِنْ صَدٍّ وَمِنْ بَعْدٍ ذَنْبُ الْحَبِيبِ عَلَى الْحَالِينِ مُغْتَفَرُ
ويسعى ابن معصوم في سبيل حبه، ويسير إلى محبوبته كما يسير المسلم إلى الحج ناسكاً، فهو يطلبها لروحه دون رغبة في الجسد غير آبه باللائمين والعاذلين، حيث يقول (89):

حَجَجْتُ إِلَى دَاعِي الْغَرَامِ مُلْبِيًا وَلَمْ أَكُ فِي حَجِّي إِلَيْهِ بِرَاقِثُ
وَلَمْ أَكْثُرْ فِي الْحُبِّ مِنْ لَوْمٍ لِأَنْتِ وَلَكِنْ سَمَاعُ اللَّوْمِ إِحْدَى الْكَوَارِثِ
ويريد ابن معصوم من حبيبته ألا تصغي إلى أقوال الواشين الذين استمعت إلى كلامهم الكاذب، ونبأ نسيانه لها، ثم يحدثها عن حاله في الحب، فهو متميز بوفائه ولن تجد مثله في هذا التميز، إذ يقول (90):

يُحَدِّثُهَا الْوَاشِي بِأَنَّى سَلَوْتُهَا لَقَدْ حَدَّثَ الْوَاشِي بِأَعْظَمِ حَادِثِ
وَمَا عَلِمْتُ أَنِّي تَفَرَّدْتُ فِي الْهَوَى فَأَنَّى لَهَا مِثْلِي بِثَنٍّ وَتَالِثِ

ويتحدث ابن معصوم عن وداع حبيبته له حين اقتربت ساعة الفراق فيظهر على ملامحها الجزع والخوف من هذه اللحظة، وليس حاله بأقل من حالتها فقد احترق وجداً، وزاد ألماً لرويته الدموع التي تساقطت على خدها، ويصور تلك الدموع بالدر الذي لا يجمعه أحد، إذ يقول (91):

(87) المصدر نفسه، ص 148.

(88) المصدر نفسه، ص 191.

(89) المصدر نفسه، ص 97.

(90) المصدر نفسه، ص 97.

فَقَامَتْ لِتُودِعِي بُوْجِدٍ مَرُوعَةً وَلِلْوَجْدِ فِي جَنْبِي مِنْ لُوعَةٍ فَرَطُ
وَأَذَرْتُ دُمُوعاً مِنْ لِحَاطٍ سَقِيمَةٍ هِيَ الدَّرُّ لَكِنْ مَا لَمَنْتُورِهِ لَقَطُ

2. الغزل العذري:

أما الاتجاه الثاني في الغزل عند ابن معصوم فهو الغزل العذري الذي يسكب به لواعج نفسه وشوقه، وما عانى من ضروب في هذا الحب السامي الذي طالما كثرت أشكاله في الشعر العربي، فنراه يلهج بالأماكن التي كان يلاقي بها تلك الحبيبة، فيتذكر الغوير⁽⁹²⁾، ونجد وما كان له بها من ذكريات تثير نار الصب والهيام كما يقول⁽⁹³⁾:

تَذَكَّرَ وَالذِّكْرَى تَهِيْجُ أَخَا الْوَجْدِ مَرَاتَعَ مَا بَيْنَ الْغَوِيْرِ إِلَى نَجْدِ
ويذكر لنا اسم حبيبته سحيراً، ويصور مكان سكناها زروود⁽⁹⁴⁾، بأنها أرض طيبة تتعش من يحل بها إذا يقول⁽⁹⁵⁾:

عَمَرَكَ اللهُ هَلْ مَرَرْتَ سَحِيْرًا بِزُرُودٍ فَزَدْتَ طِيْبًا وَبِرْدَا
وخير قصيدة تمثل هذا الاتجاه العذري عنده هي قصيدة مطلعها⁽⁹⁶⁾:

لَوْ أَبَانَتْ حَجَابَهَا أَسْمَاءُ فَأَقْرَرْتُ بِعَجْزِهَا الْعَقْلَاءُ

ونرى فيها كل خصائص الغزل العذري، فهو لا يطلب الوصول الجسدي، وإنما الروح، ويستعزى بمن يحاولون الوصول، ويخبرهم بعفتها ومنعتها، ومن ثم ينتقل إلى الموت، فيصوره غاية في سبيل الوصول إليها فداء لها، أو قرباناً لحبها، فما الموت في محراب هذا الحب سوى حياة أخرى، فنجد هذه المعاني في القصيدة كاملة، ومنها⁽⁹⁷⁾:

عَقَلَ الْعَقْلُ كُنْهَهَا عَنْ وَصُولِ فَأَقْرَرْتُ بِعَجْزِهَا الْعَقْلَاءُ

وقوله:

(91) المصدر نفسه، ص 262.

(92) الغوير: هو ما بين العقبة والقاع في طريق مكة (انظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر - دار بيروت، بيروت 1948، 4/220).

(93) الديوان، ص 144.

(94) زروود: هو رمال بين الثعلبية والخزنية بطريق الحاج من الكوفة. (انظر: معجم البلدان، 3/139).

(95) الديوان، ص 147.

(96) المصدر نفسه، ص 38.

(97) المصدر نفسه، ص 38 - 39.

فَقَدْ أَحْرَزُوا دُونَ الْأُنَامِ مَفَاخِرًا تَضِيقُ لَدِنَاهَا الْبَسِيطَةُ وَالْبَحْرُ
 "أُولَئِكَ أَبَائِي فَجَنَنِي بِمِثْلِهِمْ" إِذَا جَمَعَ الْأَقْيَالُ أُنْدِيَةَ زَهْرُ
 ويفتخر الشاعر بأبيه فيكتفي به شرفاً عالياً إذا ما انتسب إليه، ويقول: هذا نظام الدين أبي فإن
 كان لسادة أن يفتخروا بأبائهم فأين لهم مثل أبي الذي افتخر به حيث يقول⁽¹⁰⁰⁾:

حَسَبِي مِنَ الشَّرَفِ الْعُلْيَا أَرُومَتُهُ أَنْ أَنْتَمِي لِنِظَامِ الدِّينِ فِي حَسَبِي
 هَذَا أَبِي حِينَ يَعَزَى سَيِّدَ لَأَبٍ هِيَهَاتَ مَا لِلوَرَى يَا دَهْرُ مِثْلُ أَبِي
 ويفتخر بنسبه إلى آل هاشم، وأنه ينتسب إلى صدر آل البيت. وانتسابه إلى آل هاشم يكفيه كي
 يكون في ذُرَا المجد وعُلياء الفخر حيث يقول⁽¹⁰¹⁾:

عَلَى أَنَّنِي مِنْ هَاشِمٍ فِي صَمِيمِهَا وَحَسَبُكَ بَيْتًا فِي ذُرَا الْمَجْدِ سَامِيَا
 ويفتخر ابن معصوم بنفسه بما يمتلك بمواقع الفخر، فنراه يقول إنه يمتلك ميزة وضاعة على
 جبين الدهر وكأنها شمس منيرة وتساندها مفاخر آل هاشم والرسول الكريم التي تضعه في مرتبة
 عالية من الشرف والفخر لا يدانيه أحد⁽¹⁰²⁾:

وَلِي شَيْمَةٌ فِي وَجْنَةِ الدَّهْرِ شَامَةٌ تُتِيرُ عَلَى رَغَمِ الصَّبَاحِ الدِّيَابِجَا
 تَأْزِرُهَا مِنْ هَاشِمٍ وَمُحَمَّدٍ مَفَاخِرُ لَا تُبْقِي مِنَ الْفَخْرِ بَاقِيَا
 ومن خلال ما تقدم تبين لنا أن ابن معصوم قد افتخر بقومه آباء وأجدادا، ونسباً ونفساً، وبذلك
 يكون قد اشتمل نظمه على كل ما يطرق عادة من الفخر على الرغم من القلة التي أورها تقارنيه في
 هذا الجانب. ونرى لديه صدق المشاعر وقوة الانفعال، فقد التحم فخره بذاته حيث استعلى وتسامى
 فيه، ولم يكن يرى فيما يذهب إليه من استعلاء بالغريب أو المستهجن أو البعيد عن الحقيقة والصدق،
 بل يرى الحق له فيه، إذ كان نسبه أرقى الأنساب وأشرفها، وكذلك الأمر من حيث مكانته
 الاجتماعية، والسياسية، والعلمية، فكان ذلك الفخر نتيجة حتمية لهذه المشاعر في داخل شاعرنا.
 ولقد كان فخر ابن معصوم جارياً على درب الشعراء من أسلافه، إذ تفيد من بموضوعات
 الفخر التقليدية كالفخر بالنسب، والقوم، والذات بالإضافة إلى الفخر بالشعر، فلم يأت بالجديد أو
 المتميز في فخره.

ثالثاً: المديح

⁽¹⁰⁰⁾ الديوان، ص 50.

⁽¹⁰¹⁾ المصدر نفسه، ص 487.

⁽¹⁰²⁾ الديوان، ص 486.

لقد احتل فن المديح في ديوان شاعرنا حيزاً كبيراً إلى جانب الأغراض الشعرية الأخرى، حيث عبر في مدائحه عن مشاعره وعواطفه التي نبعت من أعماق قلبه تجاه النبي ﷺ، ووالده، وإخوانه، وأصدقائه إذ أظهر فيها محامدهم، ومفاخرهم كما نشر فيها طراز محاسنهم، ناثراً لآلئ أوصافهم في المجالس والمحافل.

لقد تمحورت قصائده في المديح حول موضوعين أساسيين:

أولاً: المديح النبوي الذي يدور حول الثناء على شخصية الرسول ﷺ وذكر مآثره ومحاسنه.

ثانياً: المدائح العامة التي دارت حول شخصية والد ابن معصوم وإخوته، والسلطان حسين الصفوي، وأصدقائه.

1. المديح النبوي:

كثر المديح النبوي في ديوان ابن معصوم، إذ نظم من القصائد المطولة إحدى عشرة قصيدة بما فيها بديعيته. تفرد منها قصيدتان بالدخول في المدح مباشرة، وإحدى هاتين القصيدتين جاءت لوصف نعل الرسول ﷺ فقط، أما القصائد الأخرى فقد أتت متشابهة ومتقاربة الشكل من حيث الاستهلال، وما طرقة من مواضيع إضافية إلى مدح الرسول ﷺ. نرى من خلال قصيدة تقع في واحد وسبعين بيتاً مطلعها⁽¹⁰³⁾:

تَذَكَّرْ بِالْحِمَى رَشَاءً أَغْنَا
وَهَاجَ لَهُ الْهَوَى طَرِباً فَغْنَى

يستهلها ابن معصوم بالوقوف على الأطلال، يتذكر فيها رشاً بالحمى واشتعال نار الشوق والحنين إلى نجد فلا وجه للمقارنة بين الهند ونجد، فنجد تعلوها وتسمو عليها، ولا نرى في هذا وقفاً على الرسوم الدارسة، بل تذكراً للمكان وجماله، ينتقل بعد ذلك إلى النسب فيقول إن له في نجد حبيبة مشوقة في قوامها لا ينازعها أحد في تمايلها، وقد أحبها وهام بها من دون إكراه، ولكن سهام عيونها رمته فقتلته، فصار صريعاً لهواها، وقلبه راح يظهر هذا الحب تارة ويخفيه تارة أخرى، ومن ثم نراه يباشر بمدح الرسول ﷺ فيصفه بأنه إمام الأنبياء، وأفضل الأنام، وبقدومه أصاب السرور الإنس والجن، ثم نراه ينتقل إلى ذكر مناقبه، ونراه بعد ذلك يتحدث عن معجزات النبي ﷺ، فيذكر أكبر معجزاته وأجلها ألا وهي القرآن الكريم الخالد الباقي لم يستطع أحد المجيء بمثله، أو بمعارضته، ومعجزة الإسراء والمعراج، ومن ثم ينتقل إلى الحديث عن مساعدته للناس إجابة لكل سائل، ثم نراه ينتقل إلى التشفع بالرسول ﷺ وينتهي بالصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه.

(103) المصدر نفسه، ص 437.

من الملاحظ أنه لم يخرج في مديحه النبوي عن نطاق المضامين التي رسمها وحددها شعراء المدايح النبوية قبله⁽¹⁰⁴⁾، حيث استخدم ذكر أسماء الأماكن في الحجاز، والتغزل بالمرأة كما استخدم الصفات والتشبيهات التقليدية في وصف النبي ﷺ مثل سيد الكونين وسيد الخلق وما إلى ذلك⁽¹⁰⁵⁾.

2. المديح العام:

وأما المديح العام عند ابن معصوم، فقد قاله يمدح والده، وأخاه، وأصدقاءه، والسلطان حسيناً الصفوي.

نظم ابن معصوم في مدح والده تسع قصائد مطولة، برزت فيها مشاعره الصادقة، وجاء فيها بمعان متصلة بالعهد والوفاء والمودة، وقد صدر هذا المدح عن إعجاب خالص لا يساوره أدنى شك. يقول ابن معصوم إن الكلمات تعجز عن أدائها في مدح والده، فلا الشعر ولا لنثر والخطب قادر على إيفائه حقه في المدح، فهو نجدة لمن استنجد به، وحام لمن دخل في حماه، ومنقذ من الموت في حال الزلات عند البشر، إذ يقول⁽¹⁰⁶⁾:

يَفْنِي الْمَقَالَ وَلَا تَفْنِي مَدَائِحُهُ نَظْمًا وَنَثْرًا مِنَ الْأَشْعَارِ وَالْخُطَبِ
لَا زَالَ غَوَّثًا لِمَلْهُوفٍ وَمُعْتَصِمًا لَخَائِفٍ وَنَجَاةَ الْهَالِكِ الْعَطِبِ

ومدح ابن معصوم أخاه محمد يحيى في عدة قصائد ومقطوعات متفرقة، عبر فيها عن مشاعره الخالصة نحو، فيقول: إن أخاه قد كان له السند والعضد، وكان من أصحاب المعالي يطلب منه العون، وكان أنيسه ومفرج كربيه في غربته. ويصفه بالكرم والفضل الذي يشهد له به الناس، ويرى أن أعظم رابط بينهما هو رباط الأخوة، حيث يقول⁽¹⁰⁷⁾:

هُوَ عَوْنِي عَلَى الْعَلَى وَرَجَائِي حَبْذَا الْعَوْنُ فِي الْعَلَى وَالرَّجَاءُ
وَهُوَ أَنْسِي فِي وَحْشَتِي وَسُرُورِي فِي هُمُومِي وَدِيمَتِي الْوُفَاءُ
فَبِيْحَيٍّ لَا يَبْرَحُ الْفَضْلُ يَحْيَا وَالْمَعَالِي بِهِ لَهْنٌ اعْتَلَاءُ
أَحْكَمَ الْوَدُّ مِنْهُ عَقْدَ إِخَائِي هَكَذَا هَكَذَا يَكُونُ الْإِخَاءُ

⁽¹⁰⁴⁾ انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، شرح: عصام شعبنو، ط2، دار الخلال، بيروت، 1991، 1، 36 -

⁽¹⁰⁵⁾ انظر المصدر نفسه، ص 83، 109، 112، 135، 171، 337، 365، 385، 391، 437.

⁽¹⁰⁶⁾ الديوان ص 51.

⁽¹⁰⁷⁾ المصدر نفسه، ص 36.

ونجد في شعر ابن معصوم مدحه لأصدقائه من العلماء والأدباء الذين استوطنوا الهند في ظل والده خاصة. وكان من بين ممدوحيه عفيف الدين النجفي⁽¹⁰⁸⁾، وجمال الدين النجفي⁽¹⁰⁹⁾، وعلي بن محمد الكربلائي⁽¹¹⁰⁾، ويتسم مدحه لهؤلاء الأصدقاء من العلماء بالصدق والإخلاص⁽¹¹¹⁾.

نجد في شعر ابن معصوم مدحاً للسلطان حسين الصفوي، فقد نظم قصيدتين في مدح الشاه لاجئاً إلى المبالغة والإطراء حيث يصفه بصاحب الطالع الحسن، ويدعو له بالعون والسداد في أمور الدولة، ويقول فيه إن اسمه قد سمي توقفاً لمن يسمعه، ويصوره وكأنه قد أضحى قبلة للناظرين حيث يقول⁽¹¹²⁾:

يا أيها الملك المسعود طالعُهُ لا زال يُسعدُكَ التدبيرُ والقَدْرُ
أنتَ الذي باسمِهِ السَّامي وطلعتِهِ نالَ المني المدركانِ السَّمْعُ والبصرُ

ويشيد به في رعايته الحركة الثقافية، ومن ذلك إنشاؤه لمدرسة في أصفهان، ومن اللافت للنظر أنه لم يمدح أحداً سوى الشاه حسين الصفوي، وذلك تعبيراً عن الإشادة بالأعمال الخيرية.

رابعاً: الإخوانيات

واحتلت الإخوانيات جزءاً كبيراً من ديوان ابن معصوم كالغزل، والمديح. وتبادل ابن معصوم مساجلاته الشعرية مع والده، وأخيه السيد محمد يحيى، ومع أستاذه محمد بن علي الشامي، ومع أصدقائه من الأدباء الذين كانوا شخصيات بارزة في مجتمعهم سواء كانوا في الهند أو في الحجاز وهم السيد حسين بن شرف الدين النجفي⁽¹¹³⁾، والشيخ جمال الدين بن عبد الله النجفي، وعفيف الدين

⁽¹⁰⁸⁾ عفيف الدين عبد الله بن الحسين النجفي، يكنى أبا ناصر، كان نقيب النجف في القرن الحادي عشر الهجري، وكان شاعراً كاتباً، بينه وبين ابن معصوم مكاتبات ومحاوالت نثراً وشعراً (أعيان الشيعة، الأمين، 92/38).

⁽¹⁰⁹⁾ هو الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله النجفي المالكي، من أدباء القرن الحادي عشر الهجري، من مستوطني الهند، دارت المراسلات بينه وبين ابن معصوم. (سلافة العصر، ابن معصوم، ص 546).

⁽¹¹⁰⁾ هو السيد علي بن محمد الكربلائي الموسوي، يكنى أبا الحسين، أحد أدباء كربلاء في القرن الحادي عشر الهجري، ولد في سنة 1094 هـ. كان يرسل ابن معصوم. (أعيان الشيعة، الأمين، 33/42).

⁽¹¹¹⁾ الديوان، ص 191، 132، 274.

⁽¹¹²⁾ المصدر نفسه، ص 191.

⁽¹¹³⁾ هو السيد حسين بن شرف النجفي، كان حياً سنة 1096 هـ أحد أشراف النجف وأدبائه في القرن الحادي عشر كانت بينه وبين السيد علي خان الشيرازي مكاتبة ومحاوالت. (أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1983، 35/6).

عبد الله بن حسين الثقفي، والسيد حسين بن شذقم، وأبو الحسن الشيرازي⁽¹¹⁴⁾، وعلي بن محمد الكربلائي، والشيخ أحمد بن محمد الجوهري المكي⁽¹¹⁵⁾.

تدور هذه المساجلات الشعرية عند ابن معصوم حول الصداقة والمحبة، والمدح، والتهنئة، والعتاب، والاعتذار، والاستعطاف.

وقد كتب ابن معصوم إلى والده في مناسبات متعددة، فنراه في إحداها يتحدث عن رؤيته محاسن أبيه وفضائله، ويستعطفه لتلبية حاجته لاجئاً إلى كنفه، شاكياً له شدة الهم الذي أصابه وما إلى ذلك⁽¹¹⁶⁾. ونلاحظ من خلالها مدى علاقته القوية به من حيث المودة والمحبة.

أما مساجلاته مع أخيه محمد يحيى فانتسمت بالصدق والإخلاص في التعبير عن مشاعره الودية والأخوية. فقد بعث إليه خمس قصائد ومقطوعة، اشتملت على المديح، والشكوى، والعتاب، فقد كتب إليه أخوه محمد يحيى قصيدة مطلعها⁽¹¹⁷⁾:

أفـلْ أيـهـذا القـلـبُ عـمّا تُحـاولـه فإـنـك مـهـمّا زـدت زـادَ تـشـاغـلـه

فأجابه ابن معصوم بقصيدة صرح فيها عن العلاقة القائمة الموصولة بينهما بالحب والإحسان، ويدعو له باستمرار الرفعة والعلو في المجد، إذ يقول⁽¹¹⁸⁾:

أخـ لي ما زـالت أواخي إـخائـه مـوطـدّة مـنـه بـبر يـواصـلـه
ليـهـنـك مـجـد يا بـن أحمـد لم تـزل فواضـلـه مشـهـورة وفضـائـله

ويشكر ابن معصوم أخاه لقصيدته التي أرسلها إليه، وذلك حين يقول له إنه يشكره على ما قدم له من أبيات كالورود جمالاً، عليها من ماء الندى ما يزيدها حسناً، إذ يقول⁽¹¹⁹⁾:

سأشـكر ما أهديت لي من أزاهـر يـجـولُ علـيـها مـن ندى الحـسـن جائـله

أشاد ابن معصوم بأخيه كما أشاد بشعره، ونجد في هاتين القصيدتين قواسم مشتركة مثل اتفاق القصيدتين في الوزن والقافية، حيث جاءتا على الوزن نفسه والقافية نفسها، فكلتاها لامية، ووزنهما

(114) هو الحكيم أبو الحسين الشيرازي، طبيب بارع وأديب من إيران، قدم الهند عام 1075 هـ، دارت مراسلات بينه وبين ابن معصوم. (سلافة العصر، ابن معصوم، ص 481).

(115) هو الشيخ أحمد بن محمد بن علي المعروف بالجوهري المكي، ولد بمكة ونشأ فيها ورحل إلى الهند، أديب، شاعر بارع، توفي عام 1069، (خلاصة الأثر، المحبي، 327/1).

(116) الديوان، ص 179، 397، 54.

(117) سلافة العصر، ابن معصوم، ص 36.

(118) الديوان، ص 342.

(119) المصدر نفسه، ص 343.

طويل. كذلك وقفا على الأطلال وتحدثنا عن شوقهما، وتبادلا المدح إلا أننا نلاحظ الاختلاف في استهلال القصيدتين حيث بدأ أخوه بالشكوى عن الدهر، بينما استهل ابن معصوم بالمقدمة الطالية.

وقد تضمنت هذه المراسلات الشعرية أغراضاً مختلفة، مثل المديح، والعتاب، والشكوى، والاعتذار، والاستعطاف، والشوق، والشكر متسماً بالصدق كما تقدم. ونهج ابن معصوم في قصائده الإخوانية نهج القصيدة العربية لأسلافه من الشعراء، فاستهل أكثرها بالمقدمة الطللية أو الغزلية. وأشاد ابن معصوم بقصائد مراسليه لغة، وبلاغة، وأدبا. وقد بالغ كثيراً في ذلك. ورأينا في قصائده الإخوانيات المعاني المتكررة المتعلقة بإظهار المودة والصداقة، والتشبيهات نفسها خصوصاً في الإشادة بشعره أو بشعر من كتبوا إليه، ولاحظنا في هذه المراسلات المتبادلة بين ابن معصوم وغيره أنها اتفقت في الوزن والقافية، وذلك حسب ما جرت عليه القواعد والمساجلات تقليدياً في شعر الإخوانيات.

خامساً: الرثاء

في شعر ابن معصوم ست قصائد مطولة في الرثاء. فقد رثى في ثلاث قصائد منها أهله وتضمنت رثاء أبيه، وأخته، وابنه. وجاءت مرثيته الأخرى في حق عمار بن بركات⁽¹²⁹⁾ من أصدقاء أبيه، وابن صديقه السيد زين العابدين⁽¹³⁰⁾ والحسين بن علي بن أبي طالب.

رثى ابن معصوم والده بمرثية رسم فيها شعوره نحوه رسماً دقيقاً بعد انتقاله إلى الدار الآخرة مشيراً إلى أن الموت قد خطف من آل عبد مناف قمة من أسيادهم، ونورا يطغى على الظلماء، حيث يقول⁽¹³¹⁾:

هَذَا الْحَمَامُ لَأَلِ عَبْدِ مَنْفٍ جَبَلًا أَنْفَ عِلَاءِ أَيِّ مَنْفٍ
أَوْدَى بِأَبْلَجٍ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ يَجْلُو بَغْرَتِهِ دُجَى الْأَسْدَافِ

وقد رثى ابن معصوم أخته عندما رزى بارتحالها إلى جوار ربها عام 1070 هـ واصفاً عواطفه الصادقة الحارة نحوها، فيعبر عن حبه الشديد لها، وافتدائه إياها لو أمكن ذلك، حيث يقول⁽¹³²⁾:

بَكَيْتُ أَسَى لَوْ رَدَّ عَنْكَ الْبَكَ حَتْفًا وَأَعْلَوْتُ وَجَدًا لَوْ شَفَتْ عَوْلَةً لَهْفًا

⁽¹²⁷⁾ الديوان، ص 192.

⁽¹²⁸⁾ المصدر نفسه، ص 207.

⁽¹²⁹⁾ هو السيد عمار بن بركات بن جعفر بن بركات بن أبي نعي الحسني، أحد أشراف مكة، كان مشهوراً بالفضل والأدب وحسن الشعر، ممن دخل الهند في سنة 1062 هـ، 1069، (خلاصة الأثر، المحيي، 3/ 204).

⁽¹³⁰⁾ هو ابن السيد حسين بن شرف الدين النحفي الذي كانت بينه وبين ابن معصوم مراسلات، انظر الإخوانيات.

⁽¹³¹⁾ الديوان، ص 301.

⁽¹³²⁾ الديوان، ص 297.

تتجلى أشجان شاعرنا وأحزانه أنه يتمنى عودة أخته إلى الحياة لترى ما حل به لفراقها، أو ينتقل هو إلى ميت يتكلم معها. ويظهر جمال هذا البيت لعدم تكلفه، إذ يبرز ابن معصوم قوة الأواصر بينه وبين أخته الفقيدة من مودة ومحبة خالصة صادقة، يقول⁽¹³³⁾:

ولو وعيتُ أذنكِ كثرَ تأوُّهي علمتِ إخائي ما أبرَّ وما أصفى

رأينا في هذا البيت كيف استطاع شاعرنا أن يرسم لوحة فنية متكاملة في أجرائها ملوناً إياها بالوان اللوعة والشجن، مضيفاً إليها رغبته في أن تسمع أخته ما يكابده من حزن وأسى، واضعاً لمساته الأخيرة على هذا البيت بإبراز مدى عمق شعوره بالأخوة والمودة الخالصة.

ورثى ابن معصوم ابنه إبراهيم المتوفى 1101هـ، في الهند بقصيدة مليئة بالمشاعر الصادقة النابعة من قلب مكلوم، مكتو بالحزن والأسى. ويعبر عن تلك المشاعر من خلال تمنيه أن يكون فداء له لو كن هذا الطلب ممكناً. ومن ثم نراه يصف ابنه المتوفى بالكوكب الذي يسقط من مداره هاوياً إلى الأسفل في ليلة لم تعرف لنور الصباح طعماً، وبعد ذلك يقول إن هذا الفتى وحياته كانا متعة للنظر، أما الآن فهو مصدر يقرح هذه العيون التي كانت تتمتع برؤيتهما، ويتمنى شاعرنا لو سبقت يد المنون إلى أخذ روحه لأنه لا مفر من قضاء الله وقدره في الموت، إذ يقول⁽¹³⁴⁾:

تفديك لو قبل المنونُ فذاها نفسٌ عليك تقطعتْ بأساها

يا كوكباً قد خرَّ من أفقِ العلى في ليلة كَسَتْ الصباح دُجاها

ممن رثاهم ابن معصوم عمار بن بركات من أصدقاء والده، فعبر في رثائه عما يجول في نفسه من مشاعر متسمة بالحزن والأسى، وذلك حين يصف أيامه تجري حزينه بها من البكاء ويقول له لو أن الدمع يعيد الحياة لمن فارقه الروح، لكانت تعود النفس إلى صاحبها لكثرة بكائه⁽¹³⁵⁾:

لنا كُلُّ يومٍ رنةٌ وعويلٌ وخطبٌ يكلُّ الرأي وهو صقيلٌ

بكيَتْ لو أنَّ الدَّمْعُ يُرجعُ ميتاً وأعولتُ لو أجدى الحزين عويلٌ

أما رثاؤه للحسين فقد صدر فيه عن مشاعر صادقة نابعة من قلب مجروح مكتو بالحزن والأسى، وذلك لأن مأساة كربلاء التي كوت قلوب المسلمين جميعاً، تركت أثراً عميقة في صدورهم من التفعج والأذى. فيصور شاعرنا وقعة كربلاء بليلة الحشر من حيث العظم، مطلعها⁽¹³⁶⁾:

⁽¹³³⁾ المصدر نفسه، ص 298.

⁽¹³⁴⁾ المصدر نفسه، ص 298.

⁽¹³⁵⁾ المصدر نفسه، ص 361.

⁽¹³⁶⁾ المصدر نفسه، ص 203.

أليّة الحشر لا بل يوم عاشور
ونفخة الصور لا بل نفثُ مصدور

نهج ابن معصوم في رثائه نهج أسلافه من الشعراء حيث استهل بوصف ما اعتل في نفسه من مشاعر معبرة عن لوعته تجاه المرثي، منتقلاً بعد ذلك إلى ذكر المحامد وإظهار المحاسن، ومختتماً بالدعاء والصلاة راجياً من الله تعالى أن يسقي جدث الفقيد وثره رحمة من لدنه.

دراسة فنية

أولاً: بناء القصيدة

نستطيع تقسيم المقدمات عند ابن معصوم إلى الأقسام التالية: المقدمة الطللية، والمقدمة الغزلية، والمقدمة الخمرية، وغيرها من المقدمات مثل الشكوى من صروف الدهر، ووصف الطبيعة.

لقد استهل ابن معصوم معظم قصائده المدحية، والإخوانية والغزلية، والفخرية بالمقدمات الطللية، حيث يبلغ عددها ما يقارب ثلاثاً وثلاثين مقدمة، متمسكاً بالتقاليد الموروثة لها، إذ نجده وقف على الديار، مسلماً عليها، وسائلاً أهلها، وباكياً فيها، وداعياً لها بالسقيا، وباحثاً عن الرسوم الدارسة، وإلى جانب ذلك ذاكراً محاسنها.

فنرى ابن معصوم يقف في إحدى قصائده التي مدح بها النبي ﷺ على الديار، ويطلب من الركب أن يسلموا على من يسكن في منى، والخيف⁽¹³⁷⁾ إذا اجتاز مداخل مكة، كما يقول⁽¹³⁸⁾:

يا حاديّ الظعن إن جزت المواقيتا
فحيّ من بمنى والخيف حييتا

نلاحظ أن ابن معصوم في المقدمات الطللية لم يخرج عما رسمه القدماء، فقد اتخذ مقدمة مباشرة للخوض في الموضوع الذي يتوخاه كما فعل أسلافه من الشعراء، وربما جاءت هذه الطللية تقليداً على النهج الذي سار عليه شعراء المديح النبوي كما أشار إليه ابن حجة الحموي⁽¹³⁹⁾. ولعل هذه المقدمات الطللية قد جاءت رمزاً لحزنه الشديد.

أما المقدمات الغزلية، فليس له منها سوى ست مقدمات، ولعل سبب هذا يعود إلى إفراد ابن معصوم باباً كبيراً للغزل في شعره، مما لا ريب فيه أن الحديث عن النسيب أقرب إلى النفوس، وألصق بالقلوب⁽¹⁴⁰⁾. فقد بلغ عدد قصائده الغزلية ما يربو على ثمان وستين من بين تسع وأربعين ومئة قصيدة، إذن لا نستغرب قلة افتتاحه بالمقدمات الغزلية، وجاءت هذه المقدمات استهلالاً لقصائده

(137) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف بمعنى. (معجم البلدان، 2/ 412).

(138) الديوان، ص 83، انظر أيضاً ص 216، 55، 177.

(139) انظر خزائن الأدب، ابن حجة، 1/ 36 - 37.

(140) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص 27 - 28، انظر العمدة في محاسن

الشعر وآدابه. ابن رشيق، بق: محمد قرقران، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، 1988، 1/ 397 - 298.

المدحية والإخوانية. فكثيراً ما نرى هذه المقدمات تمهيداً لغرض الشاعر وتقليداً للموروث الشعري. اتسمت هذه المقدمات الغزلية بسهولة اللفظ ورقيق المعاني كما نراها في مقدمة قصيدته التي مدح بها والده يخاطب محبوبته الملتفة بملاعتها والمستتره بخمارها بأن تتركه وتذهب، لأن اللهو ليس من عاداته ويكمل وصف الفتاة وقامتها الجميلة، ويقول لها إن كفيه في استغناء عن هذا الجمال البديع، كما يقول لها أيضاً بأنه ابتعد عن كل الملذات وأعرض عن واردات التبع والغايات عنه، حيث يقول (141):

أَرْبَعَةُ الْخِدْرِ ذَاتَ الرِّيطِ (142) وَالْخَمْرِ
فِي كُلِّ قَامَةٍ عَسَالٍ تَأْوُدُهُ
طَوَيْتُ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ يُسْتَأْذَنُ بِهِ
إِلَيْكَ عَنِّي فَمَا التَّشْيِيبُ مِنْ وَطَرِي
كَفَّايَ لِي غَنِيَّةٌ عَنْ قَدِّكَ النَّضْرِ
كَشْحًا وَأَعْضَيْتُ عَنْ وَرْدٍ وَعَنْ صَدْرٍ

أما فيما يتعلق بالمقدمات الخمرية، فلم يكثر ابن معصوم من استهلال قصائده بها. فجاءت هذه المقدمات الخمرية استهلالاً لخمس قصائد، ثلاث منها غزلية، وقصيدتان إخوانيتان. ولم يصف ابن معصوم أي جديد إلى ما جاء به الشعراء السابقون، فأثت هذه المقدمات تمهيداً للغرض الذي يهدف إليه كما نرى في مقدمة قصيدته التي مدح بها صديقه حسين بن شرف الدين النجفي يخاطب فيها الساقى ويطلب منه أن يسكب له الخمر في الكأس الكبير، لأن ما صغر منه أصبح لا يفعل فعله، ويصفها أيضاً واضحة جلية في الكأس تلتع كاشعة الشمس المنعكسة على وجه القمر هبطت من عليائها لتتموج في راح ذلك الساقى، حيث يقول⁽¹⁴³⁾:

أَدْرِ الْمَدَامَةَ بِالْكَبِيرِ
وَأَسْـَٔلُهَا عَنْ كَأْسِهَا
فَالْوَقْتُ ضَاقَ عَنِ الصَّغِيرِ
كَالشَّمْسِ فِي الْبَدْرِ الْمُنِيرِ
نَزَلْتُ مِنَ الْفَلَكَ الْمَدَارِ
تَلَوُّهُ فِي كَفِّ الْمُدِيرِ

كما افتتح ابن معصوم عدداً من قصائده بمقدمات أخرى مثل الشكوى من صروف الدهر، ووصف الطبيعة⁽¹⁴⁴⁾.

2. التخلص

إن انتقال الشاعر من جزء إلى آخر في القصيدة كان من الموضوعات التي أثارت اهتمامات النقاد⁽¹⁴⁵⁾، كما أثارت اهتمام ابن معصوم في شعره، نرى خير مثال لذلك في بديعته حيث انتقل

(141) الديوان، ص 177.

(142) الریطة: جمع الریطة وهي الملاعة، لسان العرب، ابن منظور، 390/5.

(143) الديوان، ص 196.

(144) المصدر نفسه، ص 52-112.

من النظم والطريقة فيه⁽¹⁴⁹⁾. إن الأساليب تتغير بتعدد اتجاهات الكتاب، لأنها تبرز شخصياتهم في أعمالهم. وقد اعتمد ابن معصوم في قصائده على أساليب الشعر السالفة من حيث مقدماتها ولغتها، وصياغتها وبحورها الطويلة، كما اعتنى بأن تناسب لغة القصائد موضوعاتها، لأن موضوعات الشعر هي التي تحدد طبيعة ألفاظ القصيدة، فمثلاً يكون الأسلوب في الحماسة قوياً شديداً، وفي الغزل رقيقاً عذبا⁽¹⁵⁰⁾.

إذا ألقينا نظرة متفحصية على شعر ابن معصوم لنرى مدى مراعاته مناسبة الكلام للموضوع المطروق. فإننا نجد أن أسلوبه في قصائده الغزلية تتسم بالركة، مراعيًا فيها طبيعة الموضوع، ونرى فيها كلمات توحى بالركة والعذوبة، وحلاوة المعنى. فمثلاً، الزهر والفجر، وروض الدجى، والصبح المنير، وبدر التمام، والقمر، وتنبسم، وغادة، وشمس الضحى، والعطف الوشيح، والفؤاد والهوى، ونار الجوى، والخد، والجيد. كل هذه المفردات رقيقة لينة تخلف جواً جميلاً في النفوس وتخطب مشاعر الناس بعفوية، تحرك القلوب بحلاوتها⁽¹⁵¹⁾. أما في القصيدة المدحية فنرى أسلوبه يتسم بالوضوح مستخدماً ألفاظاً جزلة تتناسب مع طبيعة الموضوع، إن الكلمات والتراكيب اللغوية التي اشتملت عليها القصائد مثل الهمام، أخي العلى، الجود، الندى، هدى، كريم، المجد، شرف والفخر فخمة جاءت في المكان المناسب بعيداً عن الأسلوب المعقدة⁽¹⁵²⁾. أما في رثائه فتتجلى صورة الحزن والألم التي تبعث في النفوس أسى باستخدامه المفردات والتراكيب اللغوية المناسبة مثل الحمام، الردى، البكاء، الحنف، العويل، الوجد، الصبر، كف الدهر، العزاء، الحزن، المقابر، الأشجان، الجفن المقروح، العبرة، المنون، الأسى والنفس المتقطعة وما أشباههن⁽¹⁵³⁾. فالكلمات كلها تشعل معانيها نارا والأبيات التي تعتمد على هذه المفردات دقيقة في بنيانها لأنها تصور الحزن والأسى الخ.

ثالثاً: الصورة الشعرية

الصورة عنصر مهم في العمل الأدبي، لأنها تعبر كيفية تناول الشاعر لما يحدث في العالم الخارجي أو في داخله من مشاعر؛ ومحاولة لنقل تجربته من مخيلته إلى المتلقي بشكل يؤثر فيه الانفعالات في أحاسيسه أو في وجدانه، لذلك بقيت الصورة عنصراً أساسياً في الشعر منذ القدم لأنه:

(149) دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989، ص 469.

(150) انظر الأسلوب، أحمد الشايب، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1990، ص 79.

(151) انظر الديوان، ص 190، 385، كذلك قسم الغزل من هذا المقال.

(152) انظر قسم المديح من هذا المقال.

(153) انظر قسم الرثاء من هذا المقال.

"قائم على الصورة منذ أن وجد حتى اليوم" (154). والخيال له دور كبير في تشكيل الصورة حيث يكمن فيه مفتاح الكشف عن العاطفة كما يلعب دوراً كبيراً في إثارة النفوس (155). وفي الوقت نفسه هو ميدان العمل الذي تظهر فيه مقدرة الشاعر وتمكنه من صنعته (156). لم يكن ابن معصوم ذا خيال مجدد في صوره، وقد اتخذ من الصورة الشعرية وسيلة للتعبير الفني عن أفكاره ومشاعره معتمداً في تشكيلها على الوصف من خلال الأساليب البيانية مثل التشبيه والاستعارة والكناية.

نهج ابن معصوم في أكثر صوره نهج أسلافه من الشعراء حيث رسم محبوبته في غزلياته مشبهاً إياها بالبدر المنير، فهي بيضاء كما يقول (157):

فتاة هي البدر المنير إذا بدت
ولكن لا شرق حواها ولا غرب

ويرسم لنا ابن معصوم صورة الخمر ويضعها أمامنا من خلال التشبيهات، فيراها سراجاً ينير حوله في الفانوس، ومن ثم يشبهها بالقهوة ذات اللون الذهبي تعد خصيصاً لأصحاب الكيف والذواقين، ومن ثم يشبه حاله وحال منادمييه وولاءهم للخمر كولاء المجوس للنار. ويصور النبيذ بالعجوز، ويتعجب من لذتها وما تبعثه في النفوس نشوى، فكانها عروس لا بل هي العروس بعينها، ويظهر لنا تأثره بأوصاف أطلقها أبو نواس على الخمر، إذ يقول (158):

فكان المدام في الكاس إذ تجل
قهوة عسجدية من كُناها
هي لهو لنا إذا حلت الكأس
لقبت بالعجوز وهي عروس
في سراج يضيء في فانوس
بنت رأس مقرها في الرؤوس
ولاة في دنها للمجوس
فاعجب اليوم للعجوز العروس

ويقدم لنا ابن معصوم صورة والده من خلال استخدامه الاستعارة والتشبيه والكناية، راسماً إياه في أحسن ما يمكن حيث "الأبلج الوضاح" استعارة من الشمس، ومشبهاً والده به، واستخدم النور كناية عن والده كما يقول (159):

هو الأبلج الوضاح أشرق نوره
فجلى عن الدنيا قتام ظلامه

(154) فن الشعر، إحسان عباس، ط4، دار الشروق، عمان، 1987، ص 193.

(155) النقد الأدبي، أحمد أمين، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، 1/ 54، انظر كذلك: أصول الفنية، حسن، ص 100.

(156) الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، ط3، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 216 - 217.

(157) الديوان، ص 68.

(158) المصدر نفسه، ص 242.

(159) المصدر نفسه ص 396.

يلاحظ فيما مضى أن ما جاء به ابن معصوم في تصويره للمرأة و الخمر أو مكانة والده، ليس فيه أثر من خياله المجدد، إنما هو مستمد مما هو موجود في أشعار أسلافه من الشعراء. كما نرى في شعره تكراراً في الصور والمعاني خصوصاً في مراثيه، ومن ذلك تمنيه الموت قبل من رثاه، وفي غزلياته مقارنة ما بين الهند ونجد، وفي إخوانياته تشبيه شعره الذي أرسله إلى أصدقائه وتصويره بالعروس غير مرة كما سبق الحديث عنه.

الخاتمة:

وختاماً إذا كانت لا بد من كلمة نقولها في حق شاعرية ابن معصوم، فنستطيع القول إنه شاعر نمطي لم يحاول أن يتخلص من ربة تقاليد القدامى من الشعراء بل ظل متمسكاً بها، ولعل ابتعاده عن بؤرة الأدب العربي واستيطانه الهند فرض عليه التمسك بالتراث السالف، إلا أن هذا التمسك بالموروث لا يبخل من قيمة شاعرنا. لأنه كان شاعراً نمطياً مجيداً، فلا أرى عنده ضعفاً واضحاً في شكل القصيدة أو عدم اتساق في تلاحق موضوعاتها. بيد أنني أخذ عليه التكرار في المعاني والصور في بعض المواقع. وذلك بسبب اجترار تلك المعاني بالشكل نفسه في شعره.

المصادر والمراجع

- الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، ط3، بغداد، 1986.
- الأسلوب، أحمد الشاب، ط2، القاهرة 1990.
- الأصول الفنية للأديب، عبد الحميد حسن، القاهرة، 1949.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط10، بيروت 1992.
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، ط4، مطبعة الإنصاف، بيروت، 1960.
- أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف بيروت، 1983.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط1، النجف، 1968.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1983.
- دائرة المعارف الإسلامية.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، شرح: عصام شعيثو، ط2، بيروت 1991.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، ط2، القاهرة، 1989.
- ديوان ابن معصوم، ابن معصوم، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط1، بيروت 1988.
- ذخائر التراث العربي الإسلامي، عبد الجبار عبد الرحمن، بصرة، 1981.

روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الموسوي الخوانساري، ط1، الدار الإسلامية، بيروت، بلا تاريخ

رياض العلماء وحياض الفضلاء، الميرزا عبد الله أفندي الأصبهاني، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، قم، 1401

سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، ابن معصوم، طهران، 1906.

سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، عباس القمي، طهران، 1925.

سلوة الغريب وأسوة الأريب، ابن معصوم، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط1، بيروت، 1988.

الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ط2، بيروت 1985.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد قرقران، ط1، بيروت 1988.

الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، ط3، بيروت، 1968.

فن الشعر، إحسان عباس، ط4، عمان 1987.

فهرس الخزانة التيمورية، القاهرة، 1948.

لسان العرب، ابن منظور، ط3، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي، بيروت 1993.

معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت، 1984.

نزهة الجليس ومنية الأديب الأتيس، العباس بن علي بن نور الدين المكي الحسيني الموسوي، القاهرة، 1293

تفائس المخطوطات العربية، أسعد طلس، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، المجلد 22، 1947.

نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، المحيي، تحقيق: عب الفتاح محمد الحلو، ط1، القاهرة، 1969.

النقد الأدبي، أحمد أمين، ط4، بيروت، 1967.

هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي، بيروت 1982

-Geschichte Der Arabischen Litteratur, Brockelmann, C, Supplementband, E.J.Brill, Leiden, 1937.

